

بسم الله الرحمن الرحيم

اليوم رقم 1

قبل أن نبدأ علينا دائماً تذكر نقاط هامة لفهم القرآن الكريم، وردت في كتيب "كيف نفهم القرآن"، وسأوردها باختصار هنا، كما يلي:

- القرآن ينزل سورة سورة.
- الوحي ينسخ في ذاكرة الرسول ولا يتلقاه تلقيناً.
- السورة تنزل لتتفاعل مع الأوضاع السائدة.
- فرض التشريعات يكون بعد تكون مجتمع مسلم.
- الحديث عن الأمم السابقة في القرآن، إما موجه لقريش لأمم أهلكت لكي تعتبر وتؤمن، مثل قوم نوح، عاد، ثمود، لوط، شعيب.. أو قصص وأحداث وأشخاص تعرفهم بني إسرائيل وجزء من تاريخهم.
- كل الأمم السابقة التي أهلكت، بكوارث طبيعية، وليس بخوارق.
- تناسي كل ما ورد في علوم الدين (تفسير، حديث...).
- المخاطب في سور المراحل الأربع الأولى هم قريش فقط. وفيما بقي من مراحل الدعوة في مكة، لقريش وبني إسرائيل (يثرب) وللمستضعفين في مكة، ولكل الناس. أي أن دعوة محمد لم تبدأ بدعوة كل الناس، لكنها بدأت بدعوة قريش فقط، ثم وبعد سنوات من بدء الدعوة تحول الخطاب في السور لغير قريش.
- لكل مرحلة من مراحل الدعوة ملامح خاصة بها.
- السياق.
- مراعاة ترتيب السور حسب النزول.
- ويمكن العودة لكتيب "كيف نفهم القرآن لمزيد من التفاصيل.
- كما علينا أن نتذكر أن الدعوة مرت بسبع مراحل في مكة، لكل مرحلة ملامحها التي تميزها عن غيرها، ومرت بثمان مراحل في المدينة. ويختلف عدد السور التي تنزل في كل مرحلة عن أخرى.
- وسنحاول أن نتعرف على الجو العام السائد قبل الحديث عن سور كل يوم.
- وسنبداً اليوم مع أول تسع سور نزلت من القرآن، وهي سور قصيرة وسهلة ولا تشتمل على الكثير من الأحداث والمواضيع، وهي: الفاتحة، الفيل، قريش، العصر، التين، التكاثر، والعاديات (وتمثل سور المرحلة الأولى التعريفية للوحي)، المزمل (وتمثل المرحلة الثانية/ مرحلة التأهيل)، والمدثر (وتمثل البدء الفعلي بالدعوة).

الجو العام في مكة قبيل بداية نزول الوحي

قريش هم أحفاد إسماعيل ابن إبراهيم - عليهما السلام - وإسماعيل ولد في مكة (كما سنرى لاحقاً بعون الله) واستمر أبناؤه وأحفاده يعيشون فيها حتى ظهور الإسلام.

وعندما بعث محمد كان القرشيون يعيشون حياة مرفهة بمقاييس ذلك العصر، يمتلكون الأموال التي يجنونها من ممارستهم تجارة شراء اللبان والبخور والبهارات من أقصى جنوب جزيرة العرب ونقله إلى بلاد الشام حيث يبيعونه على الرومان الذين ينقلونه إلى أوروبا. وكانت مكة تعج بالموالي والعبيد الذين يعملون في الخدمات العامة والأعمال اليومية لقريش.

ولأنه قد مر وقت طويل جداً على زمن إبراهيم فقد اندثر الدين وتحولت قريش للوثنية وإن أبقت على بعض مظاهر الحج وخدمة الحاج، واحترمت أمن سكان مكة. والسائد عند قريش هو الإيمان بوجود الله الخالق، وإن كانوا يعبدون الأصنام، ولا يعتقدون بحياة بعد الموت.

وكان محمد أحد شباب قريش في العشرينات من عمره وليس ابن أربعين، عندما رأى يوماً أحد الملائكة وقد سد الأفق ثم اقترب حتى قاب قوسين أو دنى منه. ولا ندري هل تحدث الملك مع محمد أم لا، لكن المؤكد أن محمد عرف منذ تلك اللحظة أنه أصبح يتصل بالسماء. (رؤية الملك تحدثت عنها سورتي التكويد والنجم كرد على تساؤل قريش). ولأن الوحي عبارة عن رسائل من الله للناس، فلا بد من أن يبدأ بشكل منطقي يتمثل بتعريف محمد أنه رسول الله، وتعريف قريش أن محمد يحمل لهم رسائل من الله. فجاء نزول السور السبع الأولى كسور تعريفية لمحمد بأنه أصبح رسولاً ولقريش أن هناك بعث وحياة بعد الموت. دون وعد أو وعيد أو تشريع.

فنزلت أول سورة من القرآن والتي احتفظت باسمها كبداية للوحي (الفاتحة).

تؤكد على أن البداية (بداية كل شيء) يجب أن تكون باسم الله، وأن الحمد له وأنه ملك يوم الدين (وهذا يعني أن هناك يوم دين وبعث وحياة بعد الموت وهو ما تنكره قريش). وهي سورة تمجد ذات الله، وتبين أنه هو وحده المعبود والمستعان، وهو وحده من يطلب منه الهداية للحق والبعد عن الضلال.

** الرحمن لفظ فريد من نوعه، هو صفة تعني أن الله هو الرحمن لذاته أي مصدر للرحمة، والرحيم تعني الرحيم لغيره.

ويمكن أن يوضع لها جدول خاص بالتعريف بألفاظ قرآنية مثل سجليل ، سندس، إستبرق... ونحوها.

ثم نزلت سورة الفيل، وهي تذكر قريش بنعمة الله عليهم عندما أهلك أصحاب الفيل قبيل دخولهم مكة لتدميرها.

وهلاك أصحاب الفيل كان بفعل بركان ثار بهم، والتاريخ يقول أن مكان هلاكهم كان قرب المغمس، وهو وادي عرنة الحالي، حيث لازال هناك مزارع بسيطة تسمى المغمس إلى الجنوب الغربي من حي الشرائع.

وأسلوب القرآن الفريد يصور البركان بأنه حجارة من سجيل (الطين، الحجارة أو التراب المطبوخ) أي الحمم البركانية. والتي كانت تتطاير وتقع عليهم من فوقهم (طيراً أبابيل) تتطاير بتتابع. فجعلتهم كعصف مأكول، صورة دقيقة لمن يتعرض للحمم بحرارتها الهائلة، التي تعمل على تبخر السوائل من الجسم بسرعة فينكمش الجلد ويتعرج. وبعد فترة نزلت سورة قريش الشبيهة بسورة الفيل كونها تذكر قريش بنعمة أخرى من نعم الله عليهم، والمتمثلة بترحال قوافلهم التجارية من أقصى جنوب الجزيرة باتجاه الشام ورجوعها من هناك دون أن تتعرض لسلب أو نهب، ونعمة تمتع مكة بالأمن.

ثم نزلت سورة العصر وبعدها التين، لنقولاً أن من يؤمن ويعمل صالحاً فلن يخسر. وسورة "التين" توجه خطابها للإنسان: "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ"، وتختتم بالقول: فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ {7} أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ {8}. والمقصود بالخطاب هم قريش. وسيكرر استخدام "الإنسان" في مخاطبة قريش في سور قادمة. ** وقد ورد في سورة التين قوله تعالى: "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ {4} ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ {5} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ {6}".

و"إلا" هنا ليست للاستثناء، لأن الذين آمنوا ليسوا استثناءً من خلق الإنسان في أحسن تقويم وأنه سيتردى في آخر عمره. وبالتالي فـ"إلا" هنا بمعنى "أما"

وقد تم ملاحظة قاعدة ثابتة في القرآن مفادها: أنه كلما جاءت "إلا" في بداية موضوع جديد فهي تعني "أما". وهو ما ستؤكد آيات كثيرة في سور قادمة. (يمكن وضع جدول لـ "إلا" عندما تأتي بمعنى "أما" لمن يقوم بعمل فهرس).

** وأميل شخصياً إلى أن ذكر من آمن وعمل صالحاً يشير إلى أن هناك من صدق محمد في تلك الأيام الأولى للدعوة، ولو كانوا نفر قليل. لأن القرآن سيخبرنا فيما سنقرأ عن أمم سابقة، أن من لا يؤمن في بداية سماعه للدعوة لن يؤمن أبداً، وبالتالي فلا بد أن المؤمنين المخلصين من قريش قد آمنوا في بدايات الدعوة.

وبعد ذلك نزلت سورتي التكاثر ثم العاديات اللتان نقولاً أن قريش منشغلون في مصالحهم الدنيوية ولا يعلمون أن هناك حياة أخرى يجب أن يعملوا لضمان نعيمها والابتعاد عن جحيمها. (سيكرر هذا في سور قادمة) وهي تتحدث عن واحد من أهم الأسس التي تقوم عليه الدعوة وهو الإيمان بالبعث، وأن محمداً رسول من الله.

ولو افترضنا أن الوحي ينزل في هذه المرحلة "التعريفية" على محمد بمعدل كل أسبوع سورة، فقد استمر محمد يتلوا على قريش السور السبع لهذه المرحلة التعريفية لمدة شهرين تقريباً. وقد تسامع كل رجال قريش بما يردد محمد من ألفاظ غريبة ودعوة أغرب. حيث يقول أنه رسول من الله ويقول أن هناك حياة بعد الموت وعقاب وثواب. والملاحظ هنا أن السور لم تتعرض لأصنام قريش ولم تتعرض لعقائدهم مباشرة. إضافة إلى أنها لم تدعوا إلى عبادات ولا تشريعات.

ولنا أن نتخيل وضع رجال قريش خلال هذين الشهرين وهم يستمعون لهذا الشاب محمد الذي يعرفونه جيداً، ويتساءلون هل هو صادق أم لا؟ وهل يعقل أن يكون هناك حياة بعد الموت؟ ومن أين جاء بكلامه الغريب؟ وأسئلة كثيرة أخرى. وبطبيعة الحال السور لا تتحدث عن أي مضايقات أو أذى تعرض له محمد، لأن أغلب رجال قريش لم يأخذوا دعوته على محمل الجد، وظنوا أنها نزوة عابرة وستنتهي ويعود الشاب إلى رشه.

المرحلة الثانية / مرحلة التأهيل النفسي للرسول

حيث نزلت سورة المزمل (ما عدا الآية الأخيرة) لتمثل هذه المرحلة من الدعوة. والآيات الأولى من السورة تخاطب محمد وليس قريش كما كان الحال في السور السابقة، وآياتها ليست آيات دعوية، ولكنها توجيهية خاصة، المعني بها الرسول. وتتحدث السورة عن ثلاثة مواضيع هي:

(الآيات: 1-10) تطلب من محمد أن يتبع برنامجاً قاسياً يؤهله لتحمل المتاعب النفسية والذهنية التي سيلقاها من قريش عندما يبدأ بدعوتهم للدخول في الإسلام. وهذا البرنامج يتطلب أن يسهر بقدر المستطاع لقراءة ما نزل عليه من قرآن، وليسبح بحمد الله ويتبتل إليه. أي عليه أن يتبع (يوغا إلهية) لفترة حتى يكتسب القوة النفسية اللازمة لتحمل الضغوط النفسية التي سيواجهها عندما يبدأ فعلياً بالدعوة.

وهذا يعني أن المرحلة الأولى المتمثلة بالسور السبع السابقة لا تمثل إلا مرحلة تعريف، أما الدعوة الفعلية فلم تبدأ بعد. وبانخراط محمد في هذا البرنامج فقد تغيرت حياته اليومية. إذ أصبح يسهر الليل وينام النهار، لفترة من الزمن لم يكن يقوم فيها بأي نشاط دعوي، وترك تلاوة السور السابقة على قريش وانعزل عن الناس لفترة لا نستطيع تحديدها، لكن يمكن القول أنها امتدت لبضعة أشهر.

والتاريخ يقول أن محمداً كان يتعبد في غار حراء، قبل البعثة. ولعل الحقيقة هي أن محمداً قد لجأ في هذه الفترة إلى غار حراء، وليس قبل بعثته كما يقول التاريخ. لأنه قبل البعثة لم يعلم أنه سيكون رسولاً لله، ولم يعلم أنه سيحتاج لتأهيل نفسي ذهني للقيام بالدعوة.

وحراء غار يقع في أعلى جبل ثور، الذي سمي بعد الإسلام بجبل النور، ويبعد عن الكعبة حوالي أربعة كيلومترات. وإذا ما تذكرنا أن محمداً كان يعيش في منزل واحد مع زوجته خديجة وبناتها الأربع، ومساحة بيوت ذلك الزمان صغيرة جداً ولا تزيد عن غرفة أو اثنتين للنوم والجلوس معاً، ولا يمكن أن يتوفر فيه جو من الانعزال المطلوب، لذا فقد جاء المكوث في غار حراء الهادئ كخيار مناسب لجلسات التأمل المطلوبة من محمد.

والمزمل في قوله "يا أيها المزمل" من الزمل وليس من التزمل، ككناية عن العدو والحركة والنشاط، وكأنها تشير إلى أن محمداً عندما نزلت عليه سور المرحلة الأولى أبدى حماساً ونشاطاً لملاحقة رجال قريش في أماكن تجمعاتهم لتلاوتها عليهم. فنزلت هذه السورة تقول له أن يتروى فالأمر أكثر ثقلاً مما يظن لأنه سيواجه العنت والأذى النفسي من المشركين، لذا عليه أن يكون مستعداً نفسياً أولاً قبل البدء الفعلي بالدعوة.

(الآيات: 11-14) تحذر من سيكفر بنار جهنم يوم القيامة التي ستكون بعد فناء هذا الكون. و"الآية 14" أعطت أول صورة حسية لانتهيار هذا الكون، في إشارة إلى أن البعث والجنة والنار ستكون بعد انهيار هذا الكون. (الآيات: 15-19) تؤكد لقريش أن محمداً رسول من الله، ومن لا يؤمن برسالته سيلقى ما لقيه فرعون - الذي سمعوا عن قصة هلاكه - وتهدد من يكفر بالعذاب يوم القيامة. وتقول الآيات أن هذا القرآن تذكرة لمن يريد أن يتذكر. (دليل على أنه لا إكراه في الدين)

المرحلة الثالثة / الإنذار " البدء الفعلي للدعوة"

وتمثله سورة واحدة هي المدثر.

الجو العام السائد عند نزول السورة

مرت عدة أشهر من الانعزال، قضاها محمد في برنامج التأهيلي في غار حراء، توقف خلالها عن تلاوة السور على قريش حتى ظنوا أنه قد توقف نهائياً عن نزوته. وفي يوم من الأيام التي كان فيها متدثراً ونائماً في النهار كالعادة، نزل عليه الوحي يعلن البدء الفعلي بالدعوة: يا أيها المدثر. قم فأندثر. (ويمكن أن يستدل من تدثر الرسول أنه كان في فصل الشتاء لأن مكة ذات مناخ حار يمتد لتسعة أشهر في العام بينما تميل أشهر الشتاء الثلاثة للبرودة).

(الآيات: 1-7) الخطاب لمحمد تأمره بالبدء بالإنذار وتسبيح الله وتطهير الثياب والتخلص من كل ما له علاقة بالوثنية "الرجس"، والصبر على الأذى المتوقع.

(الآية 6) أول أمر في القرآن بالإنفاق وهو موجه لمحمد والمقصود كل الناس وقد جاء قبل الأمر بالصلاة ، وهو أول تشريع بعد البدء — بسم الله الرحمن الرحيم (لمن يضع فهارس للمواضيع والتشريعات).
(الآيات: 8-10) تحذير للكافرين من يوم الدين الذي ينكرون. (وهذا فيه إشارة إلى أن قريش قد أعلنت موقفها النهائي المنكر للبعث).

(الآيات: 11-26) تتحدث عن أحد كبراء قريش ممن يملك المال والولد الذي استمع للقرآن (سور المرحلة الأولى) فمال للحق، لكنه تراجع وغلب عليه التمسك بالموروث، ولكي يبرر لنفسه أن تراجع صحیح اتهم الرسول بأنه قرأ عليه طلسم سحرية غيب عقله، وليس قرآناً من الله. (لم يؤذ محمد)
(الآيات: 27-31) للمرة الثانية تذكر الآيات تصويراً حسياً لما في النار، بعد الآية: 14 من سورة المزمل. وسنرى في سور قادمة تكرار تقديم الصور الحسية لما في النار والجنة لزيادة تأثيرها في نفس المخاطب (قريش التي لا تؤمن بالقيامة).

(الآيات: 32-38) للمرة الثانية بعد الآية 14 من المزمل، تأكيد على أن دعوة محمد خيار شخصي. (دليل على أنه لا إكراه في الدين، لمن وضع فهرس لأدلة من القرآن).

(الآيات: 39-53) تكرار التصوير الحسي لما في النار الذي ورد في (الآيات: 27-31)، وتصور نعيم من يؤمن بالدعوة وتسميهم "أصحاب اليمين" لأنه في اللغة العربية اليمين يعني الحق والصواب واليسار والشمال تعني الخطأ. وتتحدث الآيات عن مصير أهل النار، الذين سميهم "المجرمين". وتقول أن سبب دخولهم النار أنهم لم يصدقوا دعوة محمد، التي تأمرهم بالصلاة، والإيمان بالبعث.

(الآية: 43) أول أمر بالصلاة دون تحديد لأوقات لأدائها. (الآية: 44) تأكيد على الإنفاق الذي ذكر في (الآية: 6)، وهو هنا لإطعام المسكين. (سنلاحظ أن الإنفاق يؤمر به في مجالات تكون ملحة وقت نزول السورة. وهنا أمر بالإنفاق على المسكين، قبل أن يؤمن مساكين مكة، مما يؤكد أن الإنفاق بكافة مجالاته للمؤمن والكافر (المسلم) على حد سواء وليس وفقاً على المسلم). ولعل الأمر بالإنفاق على المساكين في بداية الدعوة هنا لاستمالة قلوبهم للدخول في الإسلام.

** الآيات: تذكر المطلوب لدخول الجنة في تلك الفترة المتقدمة من الدعوة، والمتمثلة بالإيمان بالله واليوم الآخر والإنفاق (إطعام المسكين)، والصلاة دون تحديد لأوقات.

**** "إلا" في قوله: " إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ {39} فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ {40} " ليست للاستثناء من " كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينًا {38} . لأن كل إنسان بما كسب رهين بما في ذلك أصحاب اليمين . وإلا هنا مماثلة لت إلا التي وردت في الآيات: 4-6 من سورة التين السابقة.**

(الآيات: 54-56) تأكيد على أن الدعوة للإسلام خيار شخصي، كما ذكرت الآيات: 32-38.

وإلى سور اليوم رقم 2 غداً بإذن الله.

والسلام عليكم